شكوى الشهيد الفصيح

محمود درويش

سيدي الوطن!

لم أعد قادراً على الانحناء أمامك. ولم يعد في وسعي الاشتراك في حفلات توزيع الأوسمة على أبطالك العائدين. وحين تسلَّلت إلى أحد مقاعد المتفرِّجين، زجرني أحد الحرس، وأعادني من حيث أتيت، فتدحرجتُ من هراوته إلى أول قبر... واختبأت.

هذا هو دوري. وهذا هو عملي، وقد أدَّيتهما. لم أطالب بنزهة بين قبرين، ولم أطلب ضريحاً خاصّاً بي، لأن موظَّفي دائرة تسجيل البطولة لم يعترفوا باسمي المبعثر بين الهواء والرمل. حين جاء الوزراء والسيَّاح الأجانب وهواة جمع الآثار الحربية إلى جثة العاصفة النارية، كانت عواطفهم تتدفَّق على قطع الحديد المتناثرة... أشلاء طائرات ودبابات. كانوا يجمعونها بلهفة تشبه لهفة أمي وهي تجمع ما نسيه الحصَّادون في الحقول. وحين مرُّوا، مصادفة، بأشلاء جسمي واسمي أبدوا إعجابهم بالتضحية واشمئزازهم من اللحم البشري، وقالوا: ليست هذه قطعاً نادرة، ولا تصلح للمتحف والديكور والذكرى. وتركوني هناك.

*

هذا هو دوري يا سيدي الوطن. خادمك في الحياة هو خادمك في الموت بلا أجر. ومن كان فقيراً حياً يواصل عمله في خدمة الشهداء الأغنياء ميِّتاً. على حياتي السلام، وعلى جثتي ينزل الظلام. والموتى من شدَّة الكسل يلمِّعون توابيتهم ويزخرفون أضرحتهم ويحوِّلونها إلى مزار قومي. لا تظن أن هذا الأمر يهمُّني، فمن لم يكترث باسمه حياً لا يكترث بمستقبل ذكراه شهيداً. والأبطال، دائماً، أحياء ومن عائلات عريقة.

من أين تعلَّمت هذه الحكمة؟ من الحبر الذي يعاملني، موضوعاً، ويهملني كائناً. أعرف أني صرت مادة للتَّلف. ولكن، هل كنت محتاجاً إلى هذه الحشرة يا سيدي الوطن؟ دخلت في عبارتك العجيبة وتداخلت. وصلت إليك وتوصلت. وصدَّقت أنك لي، ولم أدرك أني أموت دفاعاً عن شيء آخر.

*ظهرت هذه الشكوى في كتاب محمود درويش، **وداعاً أيتها الحرب، وداعاً أيها السلام** (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية—مركز الأبحاث، 1974)، 146-152.

لم أعرف أني أموت أبداً، لأنك محتاج دائماً إلى هذه الوجبة. هكذا قالوا باسمك. وأنت لا تتكلَّم ولا تنطق، كأن صمتك القاسي عقاب المعذَّبين ليزدادوا عذاباً من أجلك. هل كان عذابي خطأً أم حقاً؟ إياك أن تعود إلى الصمت مرة أخرى، لأني ما عدت قادراً على تفسيره والاندماج به. هل كنت تريد عذاباً أكثر تعذيباً، أم كنت تريد عذاباً أجمل!

*

وضعونا في خندق انتظار الموت سنين طويلة. وقالوا: هذا هو أمر الوطن. كنا قادمين من البيوت الطينية والأكواخ الخشبية... جياعاً، وشبه عراة، ومرضى، ومعافين بك. كانت رفرفة العلم تغطِّينا. وكنا نكتب رسائل إلى الأهل البعيدين الذين صاروا بلا مصدر رزق، ننسى أن نصف أشواقنا إليهم لأن حبَّك كان يستنزفنا، ونحن عبيدك يا سيدي الوطن وعشاقك بلا وصل. وكنا نعتبر إشراك الزوجة والأطفال في القلب وهناً في الروح الوطنية، لأن التفكير بغير الخندق خيانة!

مرَّة تساءلنا عن لون الشمس في الخارج، فأتانا ضابط كبير من قسم التوجيه المعنوي ليوبِّخنا: "إن التاريخ كلَّه يقف في انتظاركم. وآمال الوطن كلُّها تسكن بين أصابعكم والزناد. لقد شرَّفكم الله والوطن بحمايته، فكيف تسألون عن أمور دنيوية أخرى؟" شعرنا بثلج الخجل يا سيدي الوطن، ورضينا أن لا يكون لنا من نصيب فيك إلا بيوت من طين، وموت جميل لا يأتي، ومجاعة دائمة.

*

وتحوَّلت إلى هاجس. تغلغلتَ فينا، يوماً يوماً، وتجنَّحت من شيء إلى حلم. ليست لنا مطالب، فأنت النعمة. وصرنا نقارنك بالجنة وكنت المتفوِّق أبداً كلَّما ازددنا شوقاً إلى تفجير المعجزة. ما هي المعجزة؟ ما هي المعجزة؟ جاهزون للضغط على اللغم المربوط بالشريان... جاهزون. ولكن الأمر لم يصدر، ولم تأمرنا يا سيدي. صارت القنبلة أثمن من القلب. وكنا ننتظر الأمر بالحرية! في انتظار هذا الأمر تحوَّلت، أيها الوطن، إلى وعد. متى يصدر الأمر فنلتقي بالوطن السحري؟ تساءلنا وتساءلنا، لا رغبةً في الخلاص من الخندق العاطل عن العمل، بل توقاً إلى ملاقاتك، فاتَّهمونا بممارسة الشكِّ وبالتدخُّل فيما لا يعنينا. هل صحيح، أنك لا تعنينا يا سيدي! وحرمونا من وجبات الغداء، فاشتدَّ جوع أهلنا الذين كنا نرسل إليهم بعض قوتنا. وحرمونا من السلاح الذي سنعانقك به ونموت. فصار حرماننا اثنين، وعذابنا موتاً، موتاً قبيحاً، يا سيدي الوطن!

*

انتهت العقوبة وصدر أمر يقول إنك محتاج إلى أبنائك الشجعان. وإنك جاهز لإصدار الحكم علينا بالموت الموعود. هل كنت تتكلَّم حقاً يا سيدي الوطن!

هل كنت توقِّع على أوراق رسمية بهذه اللغة الفخمة؟ وإذا كنت تتقن الكتابة والكلام، فلماذا لم تكتب إلينا مباشرة؟ لم تأتِ إلينا وتخاطبنا؟ هل كنت تشعر أنك بحاجة إلى مترجمين؟ لسنا أميِّين إلى هذا الحدِّ يا سيدي!

ومتى كنت تتسلَّل من شرايين قلوبنا وتذهب إلى المكتب لتخاطبنا بالورق الرسمي؟ هل أنت محتاج، حقاً، إلى كل هؤلاء الموظفين! وهل طلبت منهم أن يضطَّهدونا من أجل الطاعة؟ هل أنت هم؟ هل هم أنت! وهل ثمَّة طاعة أكبر مما نحن فيه يا سيدي! لم نأخذ منك شيئاً، ولم نطالبك بشيء إلا السماح لنا بالذهاب إلى ملاقاتك بالموت.

*

وطن.. وطن ولا وطن، حتى أذنت لنا أخيراً بالخوض في بحيرة النار. اليوم ولدنا—هكذا قلنا ونحن نرمي بأجسادنا وبحرمان العصور إلى قلب البركان. خذ كلَّ شيء! خذ ما تبقَّى، يا سيدي، خذ! من بخار الصحراء نشرب، ومن قشور الصخور نأكل لتكوين مزيد من دم نقدِّمه لك. خذ كلَّ شيء يا سيدي! فقد التقينا وتعانقنا وتخاطبنا بلا وساطة. وعرفنا، مرَّة واحدة، أنك قابل للملامسة، وصغير، وجميل، وفينا.

سنأخذك إلى أكواخنا ونأكل الجراد والبصل معاً، وننام معاً. ثم نصحو في أول صباح بخفَّة ورشاقة لنبنيك وأنت مرتاح. الذين يحررونك هم الذين يبنونك يا سيدي الوطن. وستكون مثلنا ولنا جميعاً.

لقد عثرنا على اللغة المشتركة البسيطة، البسيطة كاسمك. لست فخماً ولا مخيفاً ولا بعيداً كما قالوا. ولا تحتاج إلى وساطة وبوليس كما قالوا. سنأخذك معنا إلى البيوت الفقيرة وتكون إقامتنا دائمة.

ولكن، دعنا نموت بكثرة الآن. انتظر قليلاً لكي نموت كثيراً، فتكون لنا تماماً، تماماً... لا للغزاة ولا للموظَّفين الذين كانوا يزوِّرون توقيعك وصورتك وصوتك. عفواً، لا وقت لهذا الآن، فما زال في شراييني قطرة دم، وأنت للشهداء.

*

وانتهى دمي. اكتملت علاقتي فتكاملت. توحَّدت فانتهت وحدتي. أين أنت الآن، وأين أنا؟ أكاد أقول.. وأكاد أقول: كأني لم أمت، وكأنك لم تحيَ. ذهبت إلى المستقبل، فذهبت إلى الماضي. ذهبت للتحرُّر، فذهبت للتجمُّد. أكاد أصرخ، أكاد أصرخ: لماذا تتركني يا سيدي الوطن؟ لماذا يشقُّنا الوداع في أوج الوصول؟

لماذا تخرجني منك لتعود إلى المكتب وتخاطبني بهذه اللغة التي خضت الحرب لأدمِّرها؟ ولماذا لم تذهب إلى بيوتنا وتأكل معنا وتنام؟ لماذا تعيدني إلى دوري السابق. ولمن أقدِّم شكواي؟

لم يجف دمي بعد...
ولم تعثر جثَّتي على قبرها بعد...
وها أنت تعود إلى وظيفتك اليومية وتبصق عليَّ.
ألا تغسل يديك من دمي أولاً، لتكون قادراً على كتابة الأوامر ضدَّ دمي!

لقد حوَّلتني، في لحظة، إلى جوهر. أندمتَ... فأعدتني إلى حالتي السابقة... إلى قشرة؟ هل تستخدم حياتي وموتي من أجل حساب، وأنا أُعطيك بدون حساب العقلي!

وهل انتهت رحلتك، لتخلعني منك كحذاء عتيق غير صالح للاستعمال!

لم أكن ألعب حين ذهبت إلى تجديد حياتك بموتي، يا سيدي الوطن، لم أكن ألعب. ولا أريد أن أصدق ما يقوله الوشاة. يقولون إنك تلعب بدمي الآن، ولا أصدِّق. فالوطن لا يكذب ولا يلعب يا سيدي الوطن. فمن يكذب ويلعب إذن!

هل أنت أسير وشهيد مثلي؟ هل أنت مثلي!

وهل نحن توأمان، في الخدمة، دون أن أدري!

*

لمن أقدِّم شكواي؟ جئت أمس لأزورك، فصدَّني حرَّاسك، وقالوا: عُد إلى واجبك ودورك. فالشهداء لا يتدخَّلون بالأمور العامة. وليس للشهداء دخل بقضايا الدولة! ماذا يكونون إذن؟

أين أنت، ومن أنت؟ أخشى أن تكون مثلي. لا، لا أريد أن أُصدِّق أنك مثلي. وأخشى أن أصدِّق أن تكون مثلهم. لا، لا أريد أن أُصدِّق أنك مثلهم. فمن أنت... وأين أنت؟ هل عادوا إلى وقفتهم الطويلة المدجَّجة بيني وبينك؟ هل عادوا إلى ترميم الحاجز بيننا، بعدما توحَّدنا، يا سيدي الوطن؟ ومتى فعلوا ذلك؟ عندما كنت مشغولاً بالغوص فيك؟ وكانوا يتربَّصون باللحظة التي أغمضت فيها عيني على صدرك الضيِّق. هل اخترقوا تلك البرهة؟

متى تصل شكوايَ يا سيدي؟ وما هو عنوانك.. أو: أين هي زنزانتك أين هي؟ لم أتعب من البحث عنك، ولكن حرَّاس الحاجز يشدِّدون الحصار. سأعود إلى قبري الضائع، وتعود إلى حريتك الضائعة. سأعود، لأفكِّر بك بطريقة أخرى، لأتوحَّد بك بطريقة أخرى. ولكن، أعطني، يا سيدي، إطلالة واحدة من زنزانتك المخبَّأة في الملفات. أعطني، يا سيدي، صيحة واحدة من مكانك المجهول. وحين تقرأ رسالتي لا تغضب عليَّ، لأني أحبُّك. واعرف الآن أنك مثلي، ولكن عمرك أطول، ومفاجآتك أعظم. ولن أغترب عنك.. لن أغترب، لأن الموتى لا يغتربون عن التراب يا سيدي الوطن

المخلص

ابنك الذي نسي اسمه

حين لفظ اسمك